آيات الفصاحة العربية

لحضرة صاحب السماحة السيد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق

(استحسن جمهور العالمين باسرار العربية وضروب الفصاحة ما نشرناهُ في المقتطف الماضي من رسائل صاحب السماحة السيد البكري فرغبنا الى سماحته ان يتحفنا بنبذ أُخرى منها تنشرها تباعاً فبعث الينا بالنبذة التالية وهي كتاب ارسلهُ من الاستانة الى بعض الفضلاء في مصر: قال)

كتابي الى السيد الاجل وانا احمد الله اليهِ . وادعوهُ ان يديم النعمة والسلامة عليهِ . وبعدُ فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام . الى قبة السلام . ودار خلافة الاسلام . وفارقت مصر وساكنها . وارباضها ومواطنها . ركبتُ سفينة عَدَوِيَّة[1] . الى الثغور الفرخية . فسرت في خضم عجاج . ملتطم الامواج . لهُ دَوِيّ . من جرجرة الآذيّ[2] . أخضر الجلد . كانهُ إفرند . تصطخب فيهِ التنانُ[3] وتجري في جوفهِ الدعاميص والحيتان . اذا مازجهُ الاصيل بالعَشي . خلتهُ كُسِرتْ عليهِ الحُلي . او مُزِج بالرحيق القَطربُلّي . وان لاحت بهِ نجوم السماء . خلتهُ صفائح من فضة بيضاء . سمرت بمسامير صفار . من نضار . وأُخذت السفينة تشق عُبابه . وتتلق حَبَابه . بين ريح رُخاء . او زَعزَع هوجاء . فهي تارة في طريق مُعبَّد . وبيْتٍ مُسرَّد . وطوراً فوق حزن وقَرْدد . او على صَرْح ممرَّد[4] . وكان معنا في الفلك . رهط من العرب والترك . فكنا نتوارد معهم في جوائب[5] الاخبار . وطرف الاحاديث والاسمار . ما يزري بالمنهل العذب . واللؤلؤ الرطب . الى ان يميل ميزان النهار . وتغرق ذكاء[6] في البحار . ويسي الكون من السواد . في لبوس[7] حديد او لباس حداد . وتبرق نجوم السماء . في اكناف الظلماء . كانها سماك دلاص . او فلق رصاص . او عيون جراد . او جمر في خلال رماد . او درّ في بحر او ثُقوب في قبة الديجور . يلوح منها النور . ويبدو الهلال كانهُ خنجر من ضياء . يشق حَيَالس الظلماء . او قِلادة . او دُمْلج غادة . او سِنان لواهُ الضراب . او الليل فيلٌ وهو ناب . فنأخذ نجلاً نسمهُ الكافور . وارضهُ عنبر مذرور . رقت فيهِ زَرابيّ مبثوثات . ومنابذ وحُسّانات[8] . وأنماط مفروشة . وبُسط منقوشة

بسطٌ أجاد الرسمَ صانعها وزها عليها النقش والشكلُ

(١) نسبة الى قرية عدوك بالبحرين وقد وردت في شعر طرفة
(٢) الموج (٣) جمع نون الحوت (٤) مرّد البناء ملسهُ (٥) الاخبار الطارئة (٦) علم الشمس
(٧) اللبوس الدرع (٨) السهام الصغار

يكاد يُقطف من أزاهرها ويكاد يسقط فوقها النجمُ

وحولهُ شموع تزهر . وأضواء تبهر . وقد دارت عليه صفاة كجُمّاع الثريا . بأقداح الحُميّا وأكواب الفرائد المُرَوَّق . وتواريز الجُلاّب المُصَفَّق . ثم تجيء قينة في يدها ناي كأنهُ صور اسرافيل يحيي الرفات . وينشر الاموات . حتى اذا بدا الضياء . كابتسام الشفة اللمياء . دخلنا المضجع . نهجع . وهلمّ جرًّا . في أيامنا الأخرى . الى أن وطئنا ارض القيوم . بعد ثلاثة أيام وبعض يوم . فلما افعمت مرأى عين . كبرنا تكبير ابن الحسين

كَبَّرتُ حولَ ديارهم لما بَدَتْ منها الشموس وليس فيها المشرقُ

وراقنا ما رأينا من عمران وحضارة . ورفهية وشارة . وزراعة وصناعة وتجارة . وضخامة سلطان . وعظم بنيان . وجواد . كالأودية بين الأطواد . وكأنما الناس في المدينة . احتفلوا ليوم الزينة . أو هم لكثرة الحركة . منهزمو معركة . فهم غادون . ورائحون . زرافات ووحدانا اناثا وذكرانا . وقد لبثنا في تلك البلدان . هنيهة من الزمان . نتقلب في جنباتها . ونتنقل في انحائها وجهاتها . الى ان قدمنا القسطنطينية . ايوان الخلافة الاسلامية . وعش الدعوة المحمدية . فاذا النعيم والملك الكبير . والجنة والحرير . واذا بقعة . أطيب الارضين رقعة . وأمرعها نجعة . وقد اعتلت منائرها في الفضاء . وحلقت قصورها بالسماء . فلبست اردية الغيوم . وتقلدت عقود النجوم . ولاحت مقاصيرها البيضاء . في أكنافها الخضراء . وجرى بينها خليج الماء . فكأنها النجوم والمجرة والسماء . واكتظت نواحيها بالآثار . وحشدت بالجوامع الكبار . وناهيك بأيا صوفيه . وما ادراك ما ايا صوفيه . هو بنيّة . تعلوها شرفات عليّة . وقبة ضخمة جوفاء . كأنها قبة السماء . وأرض تلك البقعة كالملاوية . من مرمر الآق . ذي بصيص براق . وفيها دعائم كل دعامة . كالحق استقامة . وبها محاريب وحنايا . واقبية وزوايا . ومنبر كأنهُ أريكة سلطان . في الحورنق أو غمدان . هذا وقد نزلت من كشف امير المؤمنين . وخليفة رب العالمين . في دار السعادة . ومشرع الفضل والجادة . ومطلع الجود . وفلك السعود . وحظيرة النعم . ومشعر الهمم . واقمت ضيفًا عند السيد السند . الهبرزي النضد . تاج آل محمد السيد فلان . في عصابة . من الصوّابة لا عيب فيهم غير انهم يُنسون الغريب وطنه . وحامته وسكنه . لهم اعراق عربية . واخلاق هاشمية . وحماس وسماح . كالماء والراح . ولم اكد ألقي العصا وتستقر بي النوى . حتى جاءني سلام من امير المؤمنين . خلتهُ السلام الذي ذكرهُ الله في قوله ادخلوها بسلام آمنين . وقد لقيت ثمة خلانًا فرأيت حكمة يونان . ودهاء هامان . في جبة وقباء . وعمامة عجراء . وما زلت القلب في تلك الميطان . بين قصر وبستان . ومسجد

وميدان . وتأمل المُشرق من غرائب المشرق والمُغرِب من عجائب المغرب . الى ان عنَّ لي الخروج . الى سرج من المروج . يقال لهُ (ابندلر) قد بُثَّ بالزهر . والظل والشجر . فقدم لي جواد اشقر . كانهُ قطعة ذهب . أو جذوة لهب . وكانما يُجتنى من عِطفه الوَرْس . او كُسِفت في أديمه الشمس . أو ضُرِّج بالآلآب . أو دُهِن بالزِّرْياب . يطير بلا جناح . كأن قوائمهُ أريح الرياح . اذا أُطلِق في الليل وظُلمته . فقد اشتعلت الجمرة في لحمته . صريحي صميم . أجشّ هزيم . سليم الشظى . عبل الشوى . مُحدَّد الآذان . مُنخلع الرِّفيان . كأنهُ في الميدان . فارقة الشؤبوب ذي لَطَلان . فسرت عليه الى ذياك المكان . فاذا فردوس العالم . وبستان بني آدم . والروضة المُفضَّلة الرُّبا . المتألِّقة الصبا . المشرقة الارجاء والرُّبى . وقد كُسيت مَرْتَع الفرند وَقزّهُ . وخزّه وبزه . وزهت بالورد والاقحوان . والعبهر والريحان . وجرى الماء . بين تلك الاوداء . كأنهُ في صفو الدمعة . لِسان الشمعة . أو هو بلور مذاب . أو نصل قرضاب . او سلاسل فضة بيضاء . أو حية عرياء . في وسواس خفي . تجرس الحلي . وهو يتحدَّر من أنجاد . الى قيعان ووهاد . بين خمائل ورياض . وجداول وحياض . وتكسر . فوق حصباء كالجوهر . ويلتوي كالسوار . بمعاصم الاشجار . وقد سجعت غريدة البان . بين الاماليد والخيطان . باشجى من اشجاع البلغاء . وتوافي الشعراء

والطير في أرجائها عصائب وزُمَرْ قد عَلقت غصونها كاعين ثُمرْ

وهمى الدَّجن بالرذاذ . من سماء كالملاذ . وتلاهُ مطر . كحبات الدرر

ورقَّ الجوُّ حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمانِ

ونسيم يُبشِّر الارض بالقطرِ كذيل الغلالة المبلولـــِ

ووجوه الرياض تنتظر الغيثَ انتظار المحب رجع الرسولِ

وكأن بين الخضراء والزرقاء . معركة شمعاء . فانوال سبل . وانقنا اسل . والبروق ظبًا وأسنة . وفي كل غدير جُنة . وقد خطرت في تلك البطاح . تحت الشجر الدوّاح . بين الشقيق والاقاح . اسراب الغزلان . والرعابيب الحسان . من كل غرّاء فلجاء . خدلجة دعجاء . قَيْنانة لفاء . بضة جيداء . في وجه كالوَذيلة . وخدّ كالخليلة . وقوس حاجب . كأنهُ قوس حاجب . وشعر كالليل . او اذناب الخيل . وثغر اشنب . كانما ذرَّ عليهِ الزرنب . وثنايا غرٌّ . ذات اشر . وبسم بَرْد . وشفاه كأنها ورق الورد . وعينين . كسيفين في جفنين . أو سهمين في قوسين . وانامل صغار . كانها صف مدار . وقد كالرمح . وفرق كالصبح

حسن نراه ولم يكن من قبل الا في مخيلة شاعر أو كاتب

فقضينا هنالك يوماً من الأيام، خيراً من الف عام، ثم عدنا الى حيث كنا. وبعد ذلك بأوقات، حظيت بمعرفة سيد السادات، وسميذع آني عبد مناة، السيد الامجد التقي النقي العربي الابي السيد فلان، فاذا سيد همام، وعزيز ضرغام، وسجحاح قمقام، رفيع العماد، كثير الرماد، رحب الصدر رحب الفؤاد، كريم الضريبة والخليقة، طيب الخميرة والسليقة، كأن بني آدم عتبوا فأعتبهم به الدهر، أو أنهم ذنب وهو لهم عذر، قد صرفت اليه وجوه الامل، وضربت عليه قبة أطنابها السبل، عريق المنبت والبيت، ليس فيه لو ولا ليت، معطاء شريف، يرى ان شقاً في باطن البرة قسم بينه وبين القعيف، ربط الاجماع على فضله وعقد، ولو طلب درهم لم يخرج منه في عطاء ما وجد، أيادٍ تقتل دفراً والدهم بالتواضل، فأمه دفر وأم الدهم ثاكل، فصيح اللسان، كأن مقوله عضب يمان، بليغ الكلام، بليغ النظام، قريض كالآل، كل بيت شعر له خير من بيت مال، وكل مصراعي بيت في البيان، مصراعا باب قصر في الجنان، كلم ما نطقته قراضية تجد في أكلائها، ولا شعراء هذيل في أودائها، ولا مقاول حمير وقحطان ولا أقيال ثقيف وغسان، عليم بأسرار السياسات، خبير بتصريف الدول والامارات، يسير الى الغرض الاقصى، بسير لا يرى، كما جازت ذكاه من المشرقين الى المغربين، بسير لا تدركه العين، سيد لا يشبه بالكاف وكأن، اذ لم يشبهه احد في الزمن، فن أويس، ومن الأحنف ابن قيس، ومن سحبان، ومن خالد بن صفوان، ومن الاحنعي، ومن الاكثم بن صيفي، ومن كعب في الكرم وابن عادياء في الذمم، ومن ابن ماء السماء، ماء ولا كصداء

محاسن من مجد متى تقرنوا بها محاسن اقوام تكن كالمعايب

سليل نسب فخم، وحسب ضخم، وعرق هاشمي، ومنصب عاري، وآباء جحاجح، زهر مصابيح، هم سُراة البيت والحرم، حماة الابل والذمم، آباة الضيم والحيف، قُراة النزيل والضيف، هذا وقد كان فاتحة الالطاف بعد هذا المطاف، رؤية امير المؤمنين سلطان سلاطين الاسلام، وبرهان الاساطين العظام، والمثول في حضرته، بين تحفه وسدته، فشمل من احسان الوفادة، واجزل الرفادة، والأيادي البيضاء، والمراتب العلياء، ما لا يفي به ثناء ودعاء، فأي درٍّ اثر واي شكر اذكر، ولو أعطيت لسن الأخطل في بني مروان، وزهير في هرم بن سنان والنابغة في النعمان، وحسان في آل جفنة وغسان، لما وفيت حق التمداح والشكران

فهذه يدك الله لقطة عجلان، ونموذج لما قد كان، حتى اذا يسر الله بالاوبة، من الغربة، قصصت على السيد الرئيس من مغربة الاخبار ما لم يرو جوابة الاقطار، ومن عجائب هذه الاسفار ما ينسيه عجائب الاسفار، والسلام عليه ورحمة الله